المعين

على تدبر الكتاب المبين

بقلم

مجد بن أحمد مكي

دار نور المكتبات للنشر والتوزيع

مؤسسة الريان

المعين

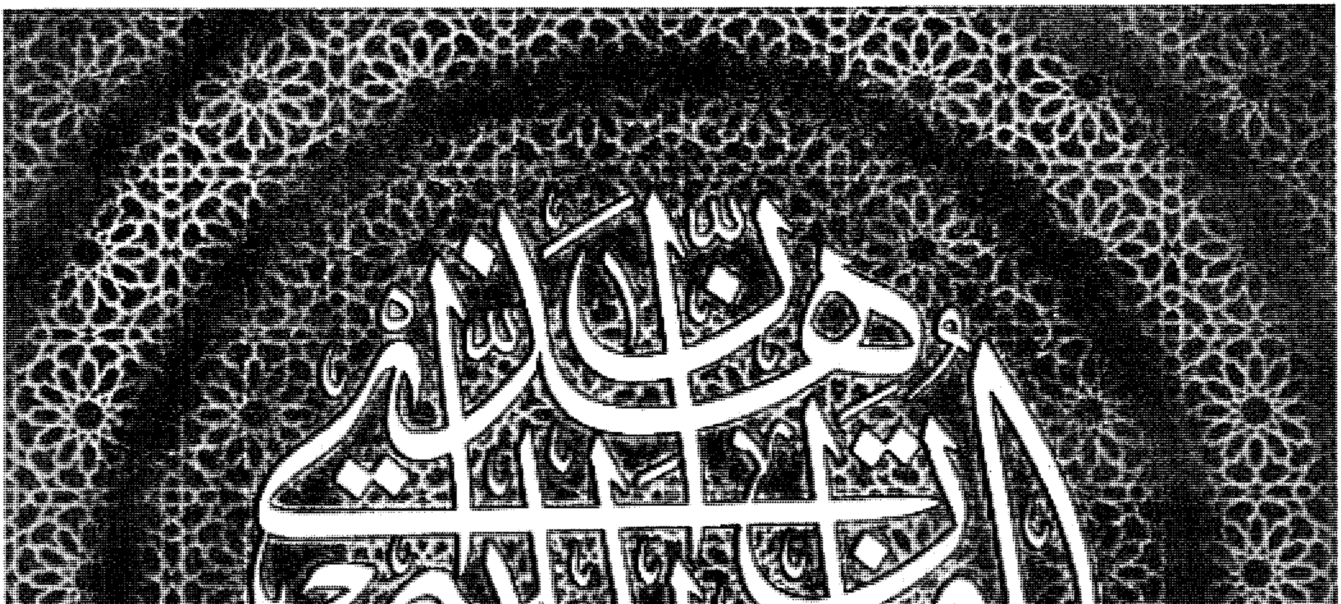
على تدبر الكتاب المبين

بقلم

مجد بن أحمد مكي

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع

دار نور المكتبات للنشر والتوزيع


إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم

المُعِين

على تدبُّر الكِتابِ المُبِين

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

الطبعة الثانية
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - هاتف: ٦٥١٢٢٧ - فاكس: ٦٥٥٣٨٢ - ص.ب: ١٤/٥١٢٦
رمز بريدي: ١١٠٥٢٠٢٠ - بريد الكتروني: ALRAYAN@cyberia.net.lb

دار نور المكتبات للنشر والتوزيع
جدة - حي السلامة - بجوار جامع الشعيبي - هاتف وفاكس: ٦٨٣٨٠٥١
ص.ب: ٤٠٣٧٤ - الرمز البريدي: ٢١٤٩٩
المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الرحمن، علَّم القرآن، خلق الإنسان، علَّمه البيان، وصلاةُ اللَّهِ وسلامُهُ الأتمَّان الأكملان على نبيِّنا محمد الذي أنزل عليه الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيِّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه، ويبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجراً حَسَناً، ورضي الله عن آله وأصحابه والتَّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإنَّ تدبُّر آيات الله في كتابه من أعظم العبادات، وأشرف الأعمال والطاعات.

وقد أنزل الله كتابه الكريم لنتدبَّر آياته، لا لنُعرض عنه ونهجره، وبعد الفهم والتدبُّر يكون التأثُّر والعمل بموجب العلم.

أهمية تدبُّر القرآن:

وتدبُّر القرآن أَوْلى وأوَّل ما يُشمِّر له أصحاب الهمم العالية، إذ هو مفتاح سائر علوم الإسلام، ولا يحسن بطالب العلم أن يقدِّم عليه سواه.

قال ابن القيم ـ (ت:٧٥١) رحمه الله تعالى ـ: «فليس شيءٌ أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبُّر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر في معاني آياته»(١).

التدبُّر في اللغة والاصطلاح:

والتدبُّر لغة: مأخوذ من مادة (د ب ر) وهي آخر الشيء وخلفه، يقال: دبَّر الأمر وتدبَّره: نظر في عاقبته. واستدبره: رأى في عاقبته ما لم يَرَ في صدره. والتَّدبُّر في الأمر: التفكُّر فيه (٢).

وجاء على صيغة التَّفَعُّل، ليدلَّ على تكلُّف الفعل، وحصوله بعد جهد، والتدبُّر: حصول النظر في الأمر المُتَدبَّر مرَّة بعد مرَّة.

قال العلامة الآلوسي (ت:١٢٧٠): «وأصْلُ التدبُّر: التأمُّل في أدْبار الأمور وعواقبها، ثمَّ استعمل في كلِّ تأمُّل سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سَوابقِه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه»(٣).

والتدبُّر اصطلاحاً: هو تحديقُ ناظرِ القلب إلى معاني القرآن، وجَمْع الفكر على تأمُّله وتعقُّله، وهو المقصود بإنزاله لا مجرَّد تلاوته بلا فهم ولا تدبُّر (٤).

أو: هو التفكُّر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الألفاظ والكلمات والآيات والسور القرآنية ومراميها

---

(١) مدارج السالكين ١: ٤٧٥.

(٢) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٢: ٣٢٤، ولسان العرب، لابن منظور ٤: ٢٣٧.

(٣) روح المعاني ٥: ٩٢.

(٤) مدارج السالكين، لابن القيم ١: ٤٧٥.

البعيدة[1].

ومن الكلمات التي بينها وبين التدبُّر تَقَارب وتَدَاخل في المعاني: **التفكُّر والتأمُّل**.

والتفكُّر: تصرُّف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب[2]. **والتأمل**: تدقيق النظر في الآيات بغرض الاتِّعاظ والتذكُّر.

فالتدبُّر يعني النظر العقليَّ إلى عواقب الأمور، أي: إنه يتجاوز الحاضر إلى المستقبل، **والتفكُّر** جَوَلان الفكر في الأمر الذي تكون له صورة عقليَّة عن طريق الدليل، **وأما التأمُّل** فقد رُوعي فيه إدامة النظر والتثبُّت، ومن ثمَّ فلا تكون النظرة الواحدة تأملاً، وإن كان يمكن أن تكون من قبيل التفكُّر [3].

فهذه المعاني الثلاثة ـ وإن كانت متقاربة ـ إلا أنَّها ليست واحدةً، وإذا ذكر بعض أهل العلم أنها مترادفةٌ، فإنما يقصد فقط الترادف الجزئي الذي قد يوجد في بعض الأحيان دون بعضها الآخر.

الآيات التي تؤكِّد على أهمية تدبُّر القرآن الكريم:

١ ـ وفي التأكيد على أهميَّة التدبُّر أنزل الله على رسوله ﷺ في مكة قوله في سورة (ص): ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ فهذا الكتاب العظيم، قد أنزله الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ، وهو مُبارك لا تَنْضَب فيوض معانيه، ولكن هذه المعاني الثرَّة لا ينتفع بها إلا الذين يتدبَّرون آياته، ويتذكَّرون معانيه، ويتَّعظون به، وهذا التذكُّر المقصود لا يتحقق به إلا أصحاب العقول الحصيفة الدرَّاكة.

ومرحلة التدبُّر تأتي بعد الفهم، إذ لا يمكن أن يُطلب منهم تدبُّر كلام لا يعقلونه، وهذا يدلُّ على أنه لا يوجد في القرآن ما لا يفهم معناه مطلقاً، وأنَّ التدبُّر يكون فيما يتعلق بالمعنى المعلوم[4].

---

(١) قواعد التدبر الأمثل، للميداني ص ١٠.

(٢) التعريفات، للجرجاني ص ٦٦.

(٣) لم يرد لفظ التأمُّل في القرآن الكريم صراحةً، ولكن أشارت إليه عديدٌ من الآيات التي تأمر بالنظر في خلق الله، والتثبُّت في رؤية عجائب الكون وآثار السابقين، وقد نعت آياتٌ كثيرةٌ على المشركين عدم تأملهم فيما تشاهده أعينهم من عجائب صنع الله، وقد اقترنت آيات كثيرة بالأفعال «يروا، ينظروا» بصيغة المضارع التي تدل على الاستمرار وإدامة الرؤية أو النَّظر.

(٤) أخرج الطبري في «تفسيره» ١: ٣٤ من طريق أبي الزِّناد عبد الله بن ذكوان، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعْذَرُ أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله » انتهى. **١ ـ أما التفسير الذي تعرفه العرب من كلامها**، فهذا سبيله معرفة استعمال **العرب** للألفاظ والتراكيب. قال الطبري ١: ٤١ : «إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة». وهو مشروط ـ كما قال ابن جرير الطبري أيضاً ـ بأن «لا يكون خارجاً عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة والخلف من التابعين وعلماء الأمة». **٢ ـ وأما التفسير الذي لا يُعذر أحد بجهالته**، فالمراد به ما هو بيِّنٌ بنفسه، يفهمه التَّالي، وهذا هو الأصلُ؛ لأن أكثر القرآن يعود إليه، ولأجله جاء الأمر بالتدبُّر، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:١٧]. **٣ ـ وأما التفسير الذي يعلمه العلماء**، فهو الذي يدركه أهل التدبُّر العميق، والنظر الدقيق، والبصيرة النافذة الكاشفة. ولا يقتصر على القدر الذي يفهمه المتدبِّر السطحي، بل يصل إلى ما تشتمل عليه الآيات من معانٍ عميقة، ودلالات دقيقة. **٤ ـ وأما التفسير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى**، فيراد به متشابه القرآن، وما تؤول إليه حقيقة الشيء الذي لا تصل العقول إلى حقيقته، وذلك مثل ما أخبر الله عنه من الغيوب، وهذا النوع من المتشابه الكلِّي الذي يستوي الناس جميعاً في عدم إدراكه.

٢-ثم أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ في مكة قوله في سورة (المؤمنون): ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾؟ تأنيبٌ شديد للذين أعرضوا عن القرآن، وهجروه، ولم يعبأوا به، ولا بما جاء فيه، فلم يدبّروا القول الذي أنزله الله ليفهموا دلالاته، حتى يهتدوا بهديها، ويعملوا بما جاء فيها.

٣ ـ ثم أنزل الله سبحانه على رسوله ﷺ في المدينة قوله في سورة (النساء): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

«لقد ورد هذا النص في معرض الحديث عن المنافقين، وهم الذين يتظاهرون بالإسلام، ويعلنون الطاعة، ويحضرون مجالس الرسول ﷺ، ولكن قلوبهم غير مؤمنة، وأفكارهم منصرفة معرضة عن كلِّ ما يُبيِّن لهم.

هؤلاء قد وضع الله تعالى بين أيديهم ما يدلُّهم على الحق، ويهديهم سواء السبيل، ويقنعهم، لو أرادوا لأنفسهم النجاة، والسعادة الحقَّة الأبديَّة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ولم يواجههم بهذا الخطاب إعراضاً عنهم في مقابل إعراضهم عن تدبُّر كتابه، وتفهُّم آياته، وفي الاستفهام الإنكاري هذا تلويمٌ لهم على ترك التدبُّر، لعلهم يثوبون إلى رُشدهم.

إنَّ هذا التدبُّر الذي يقصد منه البحث عن الحقيقة، والمقرون بالإخلاص في الوصول إليها؛ سوف يكشف لذوي الاستعداد منهم أنَّ هذا القرآن حقٌّ كلُّه، وأنه مُنزَّل من عند الله عزَّ وجل؛ لأنه لو كان من عند غير الله لاشتمل على اختلاف كثير في الواقع والحقيقة»[١].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؟! «نعم! إنهم ولا شك ـ وكل أمثالهم منذ أربعة عشر قرناً، سواء كانوا من الكفَّار الصُّرحاء، أو من المنافقين ـ لا يتدبَّرون القرآن! ولو تدبَّروه بعقول وقلوب مفتوحة، لعلموا أنه من عند الله عزَّ وجل، وأنه لا يمكن أن يكون من عند غير الله سبحانه!

إنَّ بشراً في الأرض كلها لا يتأتَّى له أن يخرج كتاباً كهذا الكتاب المعجز على جميع المستويات، وفي جميع الاتِّجاهات، والذين يتعرَّضون للتأليف هم أدرى بهذه الحقيقة، كما كان العرب العالمون بأسرار البلاغة أدرى بحقيقة الإعجاز البلاغي للقرآن.

الاختلاف أوسع من التناقض:

والآية تُقرِّر أنه لو كان القرآن من عند غير الله ـ أي: من صُنع البشر ـ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. وأول ما يردُ على الذهن بشأن الاختلاف هو التناقض، وواضح أنَّ القرآن لا يحتوي اختلافاً بهذا المعنى، ولكن الاختلاف في الحقيقة أوسع من التناقض، إنه يمكن أن يمتدَّ إلى جميع المستويات بلا استثناء. وهنا يتبدَّى إعجاز القرآن على ذات المستوى الذي يتبدَّى به الإعجاز البلاغي بلا اختلاف[٢].

---

(١) قواعد التدبُّر الأمثل، للميداني ص ١٠ ـ ١١.
(٢) ينظر: موضوع التوازن في مبحث الإعجاز التربوي في كتاب: «لا يأتون بمثله» للأستاذ محمد قطب، ص١٠٧ ـ ١١٣.

وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن:

إنَّ القرآن العظيم في المقام الأول كتاب تربية وتوجيه، وهو الذي أنشأ هذه الأمة التي وصفها خالقها هذا الوصف: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهو - من هذه الوجهة - يتناول كلَّ ميادين التربية الرئيسة في حياة «الإنسان» على مستوى واحد من توجيه الاهتمام، وعلى مستوى واحد من الإتقان والإحكام.. بلا اختلاف!

ففي تربية الروح، وفي تربية العقل، وفي تربية الجسد.. وفي التربية السياسية والاجتماعية والأخلاق.. تجد الدرجة ذاتها من الإحكام، كما تجد وحدة التوجيه نحو إنشاء «الإنسان الصالح» على نَسَق لا مثيل له في منهج البشر التي تُعنى بجانب وتُهمل جانباً آخر، وتُركِّز على جانب على حساب جانب آخر.

والقرآن ينشيء مجتمعاً متوازناً من أفراد متوازنين، بلا اختلاف في التَّوجيه بالنسبة للفرد وبالنسبة للمجتمع، لا مثيل له في كلِّ ما يصنع البشر من نُظم ومناهج، تُبرز كيان الفرد لتُفتِّت تماسك المجتمع، أو تُبرز كيان المجتمع لتسحق كيان الفرد.

والقرآن ينشىءُ فرداً وجماعة توازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح، وبين الدنيا والآخرة بلا اختلاف! على نسق لا مثيلَ له في كلِّ الحضارات التي تُبرز عالم الجسد لتطمس عالم الروح، أو تبرز عالم الروح لتحتقر الجسد وتستقذره وتُذله.

وهكذا.. في أيِّ مجال وعلى أي مستوى تدبَّرت هذا القرآن وجدت أنه يحوي توجيهاً مُوحَّداً.. **بلا اختلاف!** وعلى درجة معجزة **في كلِّ جانب**، ثم على درجة أشد إعجازاً في اجتماع **كلِّ الجوانب**.. وبلا اختلاف فيما بين توجيه لجانب وتوجيه لجانب آخر..

وهذا الكتاب ما يملك أحد أن يتدبَّره دون أن يرى لوناً من الإعجاز فيه.. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾»[1].

الآية الرابعة والأخيرة نزولاً في الدعوة إلى التدبُّر:

٤ - ثم أنزل الله سبحانه على رسوله ﷺ في معرض الحديث عن المنافقين أيضاً قوله تعالى في سورة (محمد): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

فارتقى البيان بالمنافقين المعرضين عن تدبُّر القرآن من دعوتهم إلى التدبُّر، إلى توبيخهم على ترك التدبُّر، وتأنيبهم بأن قلوبهم مقفلة، فهي لا تسمح بدخول الهداية إليها.

عطاء القرآن المستمر:

والقرآن الكريم عطاؤه مُستمر لا ينفد، وبيانه مُتجدِّد لا ينقطع، ومعانيه كثيرة لا تنْضب، وقد اجتهد الكثير من العلماء في الدعوة والتذكير بضرورة تدبُّر هذا الكتاب المبين، وأكَّدوا لزوم ذلك وأهميته.

---

(١) دراسات قرآنية، للأستاذ محمد قطب ص ٤٧٦ - ٤٧٧.

وقام كثير من المفسرين بهذه المهمة خير قيام، وما تفسيره إلا ثمرة للتأمُّل والتدبر، وقد اختلفت مناهج المفسرين في تفسيره، فمنهم من غلبت عليه النزعة الفكرية الجدليَّة، فتوسَّع توسُّعاً كبيراً في شرح الآيات المُتَّصلة بهذه المعاني، وَغَلبت على تفسيره هذه الظاهرة، ومنهم من غلبت عليه النَّزعة اللغوية والبلاغية، فتوسَّع توسُّعاً كبيراً في هذه النواحي، ومنهم من غلبت عليه النَّزعة الفقهية، فتوسَّع فيها، ومنهم من توسَّع في القصص والأخبار، ومنهم من توسَّع في الأخلاق والمواعظ، ونحو ذلك. كذلك كان من المفسِّرين من أطال حتى أملّ، ومنهم من اختصر حتى أخلَّ، ومنهم من توسَّط بين هذا وذاك.

الدعوة المتجددة إلى كتابة تفسير ملائم لأهل العصر:

وهذه الجهود الموفَّقة في تفسير القرآن يسَّرت السبل للانتفاع به، والاستضاءة بنوره، غير أنَّ كلَّ زمان له مقتضيات، وكل بيئة لها حاجات. يقول الأستاذ عبد الوهاب خلاف ـ (ت: ١٣٧٥) رحمه الله تعالى ـ في مقال له بعنوان: «واجبنا في خدمة القرآن»: «فأوَّل واجب علينا في خدمة القرآن: وضع تفسير سهل العبارة، حسن الأسلوب، يُلائم أساليب عصرنا وثقافتنا، يستبين منه المسلم معاني المفردات والمراد من الآيات، ويسترشد إلى ما في الآية من هُدًى ورحمة، ومن دروس وعبر، ليس فيه طول مُمل، ولا إيجاز مُخل، ولا نحو ولا إعراب، ولا إسرائيليات ولا اختلافات، وجملة وصف هذا التفسير: أنه تفسير يُبيِّن هداية القرآن، ويجعل القارئ والسامع مُتَّصلاً بمعانيه والمراد منه، لا مُجرَّد مُردِّد للصوت بألفاظه، وهذا التفسير موجود، ولكنه مُفرَّق ومبثوث في التفاسير، والواجب أن نستخلصه منها، ونُحسن الصياغة والترتيب. ولقد سُئل بعض العلماء: ما خير التفاسير؟ فقال: خير التفاسير مبثوث في التفاسير. وكثير ما سُئل الواحد منا: عن خير تفسير تُفهم منه الآيات بسهولة، وبدون احتمال عناء في الإعراب، والخلافيَّات والإسرائيليات، فلا نستطيع الجواب عن هذا السؤال.

إنَّ التفاسير التي بين أيدينا قيِّمة ونافعة، ولكن لا ينتفع بها إلا خاصَّة الخاصَّة؛ ولهذا تعذَّر على أكثريَّة المتعلِّمين من المسلمين أن يتَّصلوا بمعاني القرآن الكريم، وأن يتعرَّفوا على ما اشتمل عليه . والمقصود الأول من القرآن: هُداه ونوره وما جاء به»[(١)].

وقد اجتهد الكثير من العلماء والهيئات والمؤسَّسات العلمية في كتابة تفاسير تُحقِّق هذا الهدف المنشود، وأبلى الكثير منهم في هذا الميدان أحسنَ البلاء، ووضعوا عدداً كثيراً من التفاسير النافعة الجامعة، وكلٌّ منهم ولَّى في تفسيره الوجهة التي رأى فيها خدمة كتابِ الله تعالى، وتقريبه للمسلمين.

توجُّهي لكتابة هذا التفسير:

ومن ثَمَّ أردتُ أن أدلي بدلوي المتواضع في هذا المضمار، مُستشعراً خطورة الدخول في هذا الميدان، وذلك خشية أن تُقام علينا الحجَّة إن لم نقم بواجبنا نحو القرآن، ولشدَّة حاجتي من جهة ثانية لتدبُّر كتاب الله تعالى، وللأمل في أن أكون من أهل الله تعالى وخاصَّته، وأن ألحق بهذه القافلة المباركة التي خدمت كتاب

---

(١) مجلة «لواء الإسلام» العدد الرابع من السنة الخامسة (١٣٧٠)، ومجلة «كنوز الفرقان» العدد الأول من السنة الرابعة (١٣٧١).

الله تعالى عبر الأجيال، وأتشبه بهم، وأنضم إلى ركبهم، سائلاً المولى سبحانه الإخلاص والتوفيق، والهداية إلى أقوم طريق.

وهذا العمل الذي شرَّفني الله تعالى به، كان أمنيةً قديمة في نفسي، ورغبةً حقَّقها الله لي.

وكثيراً ما كنت أُسائِلُ نفسي عند تلاوة القرآن عن معنى كلمة، أو مرجع ضمير، أو دلالة جملة، وأرغب أن أقف أثناء التلاوة على هذا المعنى بوضوح، ورأيت أنَّ الكثير ممن أسهموا في تفسير كتاب الله تعالى؛ لإعانة القارئ، اقتصروا على معاني بعض الكلمات، أو اكتفوا باختصار بعض العبارات.

وعلى كثرة ما كُتب في عصرنا هذا من تفاسير مُوجَزة مختصرة مُيسَّرة لا تخلو من ثغرة ونقص، كما هو شأن الأعمال البشريَّة، ولا أدَّعي لنفسي العصمة من الزَّلل، ولا السلامة من الخطأ، ولكنِّي سدَّدت وقاربتُ، وبذلتُ جهدي في تقديم المعاني الموجزة التي تُقرِّب المعنى، وتحقِّق الفهم للآيات بأيسر طريق، وأدق عبارة.

بداية العمل في هذا التفسير:

وقد بدأتُ هذا العمل في أول شروعي فيه بالاعتماد على تفسير الإمام الخازن علي بن محمد ـ (ت: ٧٤١) رحمه الله تعالى ـ «**لباب التأويل في معاني التَّنزيل**»، وهو من أفضل التفاسير وأوضحها وأدقها عبارة، وصاحبهُ فقيه محدِّث، وتفسيره ـ مظلوم ـ بتُهمة الإكثار من الإسرائيليات، مع أنه يُنبِّه إلى كثير من ذلك، ويُحرِّر المسائل العلمية، وقد انتهيتُ من اختصاره في فترة وجيزة، وقدَّمت الكتاب للطباعة، وانتهيتُ من تصحيحه، ليكون عملي مُقَارباً لمن اختصر تفسير الطبري (ت: ٣١٠)، أو ابن كثير (ت: ٧٧٤)، أو الشوكاني (ت: ١٢٥٠)، أو القاسمي (ت: ١٣٣٢)... ممَّا هو منتشر بين أيدي الناس.

ولكنِّي رأيت أن اختصار تفسير الخازن ـ على نفعه ـ لا يُحقِّق الغاية المرجوَّة التي أطمح إليها، ولا سيما فيما يحتاج إليه القارئ المعاصر من معاني جديدة، وترجيحات سديدة، وتوجيهات مفيدة، ولغة تناسب العصر .

الإشادة بتفسير العلامة الميداني وصلتي به:

وكنتُ أتابع أثناء عملي في «التفسير» ما يُصدره شيخنا العلامة الجليل عبدالرحمن حبنكة الميداني ـ (ت: ١٤٢٥) رحمه الله تعالى ـ من تفسيره التدبُّري العميق «معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر»، وأُراجعه فيما يكتب، وقد أُعجبت بمنهجه، وبما فتح الله عليه من فهم عميق، وتدبُّر دقيق لكتاب الله، فأخذتُ أعيد النظر فيما كتبت، مُستفيداً مرحلةً بعد مرحلةٍ مما كان يكتبه في تفسيره الذي أصدره تباعاً وَفْقَ مراحل النزول، حتى انتهى من التنزيل المكي[1].

ولشيخنا رحمه الله تعالى منهج متميِّز في التدبُّر، أوضح ملامحه، وذكر قواعده في كتابه النفيس

---

(١) انتهى الشيخ رحمه الله تعالى من تفسير القسم المكي حسب النزول، وصدر في (١٥) مجلداً، ثم شرع في تدبُّر سورة البقرة من أول التنزيل المدني، وتكلَّم عن موضوع السورة، ودروسها، وحال الأجل دون تحقيق الأمل، وقد كتبت كلمات في التعريف بتفسيره التدبُّري في مجلة «هدى القرآن» التي تصدرها الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن بجدة في العدد الثاني، سنة (١٤٢٥)، ثم صدر سنة (١٤٢٧) عن دار القلم بدمشق بعنوان: «التعريف بكتاب معارج التفكُّر».

«قواعد التدبُّر الأمثل» الذي اشتمل على أربعين قاعدة، ويُعدُّ الشيخ ـ بحق ـ من روَّاد علم التدبُّر في عصرنا هذا، وذلك فضل الله سبحانه يُؤتيه مَنْ يشاء من عباده.

ونظراً لطول الكتاب، وكثرة مباحثه، وسَعَةِ موضوعاته أولاً، ولاقتصاره على مرحلة التنزيل المكي ثانياً، أحببتُ أن أقدِّم للقارئ المعاصر خلاصة وافية مركَّزة لما كتبه الشيخ في «تفسيره التدبُّري» ليكون مُعيناً لمن أراد التعمُّق في التدبُّر بالرجوع إلى تفسيره، واستجلاء المعاني الدقيقة منه، وقد التمست خطى الشيخ فيما كتبه في تدبُّر السور المدنيَّة، مُستنيراً ببعض «قواعد التدبُّر الأمثل»، ومُستفيداً ممَّا دوَّنه في بعض كتبه الأخرى مثل: «ظاهرة النفاق»، و«فقه الدعوة»، و«أمثال القرآن»، و«الأخلاق الإسلامية». . . وكلُّها تدور حول التفسير الموضوعي الذي يُتابع مراحل النزول، ويجمع الآيات في موضوع واحد بتناسق وترابط .

أهم مصادري في هذا التفسير:

ورجعتُ في تفسيري هذا إلى مصادر كثيرة أُخرى سوى ما ذكرت على سبيل الاستئناس والاسترشاد، كالتَّسهيل لابن جُزي (ت: ٧٤١)، وتفسير النسفي (ت: ٧١٠)، وابن كثير (ت: ٧٧٤)، و «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» لعبد الرحمن الثعالبي (ت:٨٧٦)، و«تفسير الجلالين»: المحلي (ت:٨٦٤)، والسيوطي (ت:٩١١)، و «السراج المنير» للخطيب الشربيني (ت: ٩٧٧).

ومن تفاسير المعاصرين: «صفوة البيان» للعلامة حسنين محمد مخلوف (ت: ١٤٠٢) رحمه الله تعالى، و «المنتخب في تفسير القرآن» الذي أصدره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، و «التفسير الميسَّر» الذي أصدره مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة. كما استفدت في تفسير السور المدنية من الأجزاء العشرة الأولى، ممَّا كتبه العلامة الفقيه المفسِّر محمد أبو زهرة (ت: ١٣٩٤) رحمه الله تعالى في تفسيره النافع «زهرة التفاسير»، إلى غير ذلك من المصادر المتنوِّعة الكثيرة، والقراءات المتعدِّدة المستمرَّة المتَّصلة بكتاب الله عز وجل.

المستفيدون من هذا التفسير:

وقد حرصتُ أن يكون هذا التفسير مُخاطباً لعموم المثقفين، ولا سيما خرِّيجي الجامعات العلمية، مُحاولاً أن أُقرِّب إليهم الكثير من معاني الآيات الكريمة، لتكون خطوة نحو فهم عميق، وتدبُّر دقيق للكتاب الكريم.

وقد يجد المتخصِّصون من طلبة العلم الشرعيِّ في هذا التفسير ما يروقُ لهم، ويسرُّهم مما وفَّقني الله سبحانه إلى دقة فهمه وحُسن اختياره.

ولكن لا بدَّ للاستفادة من هذا الكتاب من إعمال الفكر، ومُعاودة النظر، وبذل الجهد، إذ لم يكن عملي مجرَّد اختصار، وإعادة ترتيب، بل فيه من دقائق النظر، وبدائع الفِكر ما يدعو إلى بذل الجهد، لا الاقتصار على القراءة العابرة السطحيَّة.

دقة هذا العمل ومشقته:

ولا يخفى عليك ـ أخي القارئ ـ دقَّة هذا العمل وصعوبته ومسؤوليته، وكنت أُعيد النظر في كلِّ كلمة

وجملة مرّات مُتعدِّدات، وزاد مشقَّة هذا العمل الالتزام بمقدار معيَّن مُحدَّد في حاشية المصحف الشريف. فكنتُ في كثير من الأحيان أعدُّ الكلمات، وأقيس الصفحة، لتأتي الآيات في مكانها المحدَّد، ولو كان المكان مُتَّسعاً لجرى القلم بيُسْر وسهولة. والله -سبحانه ـ وحده يعلم قدر ما بذلته من جهد، فكم كتبت وشطبت! وكم أنعمت وفكرت! وكم تأملت ونظرت! وكم قدمت وأخَّرت!

لا يعرف **البحث** إلا من يكابده ولا **الكتابة** إلا من يعانيها

اعتذار ورجاء:

ولا يخلو عملي ـ على ما بذلتُ من جهد ـ من قصورٍ، كيف وهو يحاول أن يسمو لتدبُّر كلام الله سبحانه وتعالى. وإذا كان الكاتب في مختلف مجالات العلوم، يزيد وينقص، ويؤخِّر ويقدِّم، كما يقول القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (ت: ٥٩٦) فيما كتبه إلى نائبه في وزارة الكتابة الأديب المؤرخ الشهير العماد الأصفهاني (ت: ٥٩٧) رحمهما الله تعالى: «إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه، ونظر فيه في غدِهِ إلا قال: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جُملة البشر»(١).

فكيف إذا كانت الكتابة تتعلَّق بكلام الله وتدبُّره في وقتٍ معدود، ومكان محدود. فرجائي من القارئ المنصف البصير أن يتجاوز عن الهفوات، والهَنَات الهيِّنات، فجلَّ من لا يسهو، وسبحان من لا ينسى، وتبارك اسم من تفرَّد بالكمال .

وأرجو أن يكون هذا العمل باكورةً لأعمال أخرى تتعلَّق بكتاب الله عز وجل وعلومه، وأن يتقبَّل مني هذا الجهد، ويُثيبني عليه، ويكرمني بكرامته ورضوانه .

أهم القواعد التي التزمت بها في هذا التفسير:

وقد اجتهدت خلال كتابتي لهذا التفسير التدبُّري الموجز على الاهتداء بجملة قواعد هادية تعين على تدبر كلام الله سبحانه بطريقة مُثلى، وصورة فُضلى، ومن تلك القواعد التي اجتهدت في الالتزام بها، وإيرادها في هذا التفسير التدبري:

١ ـ الاستفادة مما صحَّ من التفسير المأثور، والنظر فيما ورد من أقوال المفسرين المعتمدين، واعتماد ما هو راجح.

٢ ـ النظر فيما ورد من أسباب النُّزول، مما صحَّ سنده مع مراعاة قاعدة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، ومراعاة دلالة السياق والقرائن التي تدلُّ على تخصيص العام.

٣ ـ اخترتُ من معاني الكلمات القرآنية المعنى المراد الذي يُلائم دلالة النصِّ القرآني بوجهٍ عام، وكما هي في كلام العرب في عصر نزول القرآن، وابتعدت عن المعاني الاصطلاحيَّة المتأخِّرة

---

(١) شرح الإحياء ١: ٣ للإمام المرتضى الزبيدي رحمه الله تعالى.

عن عصر التنزيل، مع النظر فيما قاله أهل التفسير في معنى الكلمة، للاهتداء إلى فهم المعنى المراد بتوفيق الله تعالى.

٤ ـ حَمْل النص على كلِّ المعاني إذا كانت الكلمات أو الجمل القرآنية تدل على أكثر من معنى، وعدم قصر النصِّ على واحد منها دون غيره، تمشِّياً مع عطاء القرآن الثَّر، الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تَنْضَب معانيه.

٥ ـ اسْتِبْعَاد احتمال التكرير لمجرَّد التأكيد ما أمكن؛ لتكامل النصوص القرآنيَّة، ولأن التأسيس في كلِّ نصٍّ منها مُقدَّم على التأكيد.

٦ ـ ملاحظة قواعد اللغة العربية، وتوجيه الآيات التي يُخالف إعرابها مقتضى الظاهر من خلال التفسير، كما في تفسير الآية (١٧٧) من سورة البقرة، والآية (١٦٢) من سورة النساء، والآية (٦٩) من سورة المائدة، وغير ذلك كثير.

٧ ـ استجلاء الغرض الفكري من الوجوه البلاغيَّة التي اشتملت عليها نصوص القرآن، مع الإيجاز الشديد والاقتصاد في العبارة، والتنبيه على أغراض الاختلاف في أسلوب التعبير في النصوص القرآنية.

٨ ـ محاولة فهم الآية القرآنية وفق ترتيب نظمها.

٩ ـ بيان بعض ما يشتمل عليه النص القرآني من أوجه، وما يهدف إليه من أغراض تربويَّة وتعليمية.

١٠ ـ عُنيت بخواتم الآيات ومراميها، وما تشتمل عليه من قضايا كليَّة ترتبط بما جاء قبلها بمضمون الآية.

١١ ـ اعتنيتُ بما جاء في الآيات القرآنية من قَسَم؛ بذكر المناسبة بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه، وبيان الغرض من القسم، والتنبيه على ما فيه من دلائل وعبر، وأوضحت الحكمة من القسم المسبوق بحرف النفي (لا) الوارد في القرآن في سبع سور بصيغة: (لا أقسم) في الواقعة (٧٥ ـ ٨٠)، والحاقة (٣٨ ـ ٤٣)، والمعارج (٤٠ ـ ٤١)، والقيامة (١ ـ ٤)، والتكوير (١٥ ـ ٢١)، والانشقاق (١٦ ـ ١٩)، والبلد (١ ـ ٤).

١٢ ـ ملاحظة العمق القرآني، والتنبيه إلى كثيرٍ من المعاني العميقة والدلالات الدقيقة التي لم يرد في النص ألفاظ صريحة تدل عليها دلالة واضحة، كالمحاذيف التي تُحذف للإيجاز، ويقتضيها معنى النص، واللوازم الفكرية، والكنايات البعيدة، وقد أنعمتُ النظر في استنباط المضامين الفكرية التي تُستفاد من النَّص عن طريق اللزوم الفكري، أو الإشارات الضمنيَّة للكلام، بما فيها من تلويح، أو تلميح، أو تعريض، أو كناية، أو غير ذلك؛ إذ أنَّ الكثير من المعاني تُستفاد من النص لزوماً أو يقتضيها النصُّ اقتضاءً، كسؤالٍ ذُكر جوابه دون أن يُذكر، وجوابٍ ذكر سؤاله دون أن يذكر، واعتراض ردَّ النص عليه دون أن يُذكر في اللفظ، لكنه مُلاحظٌ ذهناً، وتتمَّات يستدعيها اللزوم العقلي، وقد سَكَتَ النصُّ عنها، كما راعيتُ ظاهرة التَّضمين، وهو أن تُذكر كلمة ذات معنى، وتُضمَّن مع معناها كلمة أخرى، ثم يُبنى عليها كلامٌ على أساس معنى الكلمة الأخرى.

١٣ ـ النظر في توجيه الخطاب الرباني، فالنصوص المصدَّرة بخطاب الناس **(يا أيها الناس)** تشتمل على معنى يضم الناس جميعاً، وقد تكررت نداءات الله تعالى للناس سبع مرات في كتاب الله تعالى، والنصوص القرآنية المصدرة بخطاب المؤمنين **(يا أيها الذين آمنوا)** تشتمل على معان تخصُّ الذين آمنوا، وما يؤمرون به، وما يُنهون عنه، وما يُحذَّرون منه، وما يُوجَّهون له، وقد تكرَّرت نداءات الله للذين آمنوا (٨٩) مرة في كتاب الله، وخطاب الله عز وجل للرسول ﷺ في القرآن شامل للمؤمنين ما لم يكن فيه دلالة صريحة على الخصوصيَّة، وكذلك كلُّ تربيةٍ موجَّهةٍ للرسول ﷺ هي موجَّهة تبعاً لأمته. وخطاب المفرد هو خطاب لكلِّ فرد يصلح له الخطاب، وخطاب الذكور خطاب للإناث ما لم تأت قرينة صارفة، وهو أسلوب من أساليب التعميم الذي هو بمثابة النصِّ على العموم وتأكيده.

١٤ ـ التدبُّر في إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ما يُسند إليه، إذ لا يشترط لصحة الإسناد أن يكون المسند إليه فاعلاً للشيء الذي تضمَّنه الفعل أو ما في معناه، أو موصوفاً به. ويقع كثيرٌ من مفسِّري الآيات القرآنية بأغاليط ناشئةٍ عن عدم ملاحظة العلاقات الإسنادية المختلفة، وعدم تدبُّر النصوص استهداءً بقرائنها السابقة واللاحقة. ومن هذه الأغاليط ما وقع به الجبريون لدى تفسير النصوص القرآنية المتعلقة بموضوع القضاء والقدر، تصوراً منهم أن إسناد الفعل أو ما في معناه إلى المُسْنَد إليه لا يُفهم منه إلا معنى القيام مباشرةً بالفعل. مع أن المسنَد إليه قد يكون هو الدال أو الداعي للقيام بما تضمنه الفعل، كما في الآية (٦١) من سورة الأنعام، والآية (٨٥) من سورة طه، والآية (٣) من سورة الإنسان، وغير ذلك كثير.

كما يُنسب إلى المسنَد إليه ما تضمَّنه الفعل أو ما في معناه إلى فاعله، أو من قام به، كقولنا: برَّأته إذا نسبته إلى البراءة، وذكرت أنه بريء، ومثل ذلك: صوَّبته، وخطَّأته . .

ومن الإسناد القرآني في حدود هذه العلاقة الكثير من الآيات، كما في الآية (٤٩) و(٨٨) من سورة النساء، والآية (٢٧) من سورة إبراهيم، إلى عشرات الآيات التي لا يُفهم من إسنادها إلى الله عزَّ وجل أنه هو المُجْبِر، مما يُسقط في المفاهيم الجبرية المفسدة لمعنى القضاء والقدر الذي دلت عليه النصوص الصريحة (١).

أهم الضوابط التي راعيتها في كتابة هذا التفسير:

كما راعيتُ أموراً أخرى سوى ما قدَّمته من قواعد منهجية التزمتُ بها، وهي أمورٌ تُحقِّق الهدف من إصدار هذا التفسير وتقريبه للقارئ، من أهمها ما يأتي:

١ ـ تفسير كل آية على حدة، وعدم إعادة ألفاظ النص القرآني في التفسير إلا نادراً.

٢ ـ الإشارة إلى رقم الآية في بداية تفسيرها.

٣ ـ تجنُّبت ذكر القراءات ومسائل النحو والإعراب.

---

(١) تنظر هذه القاعدة المهمة في كتاب «قواعد التدبر الأمثل» القاعدة السابعة والثلاثون ص ٦٦٥ ـ ٦٨١.

٤ ـ التزمت رواية حفص عن عاصم، وهي الرواية التي طُبع التفسير في حاشيتها.

٥ ـ حرصت على أن يكون التفسير بالقدر الذي تتَّسع له حاشية «مصحف المدينة النبوية» المنورة، ليشترك اللسان والعقل والقلب في تلاوة القرآن حق تلاوته . فحظُّ اللسان: تصحيح الحروف بالترتيل، وحظُّ العقل: تفسير المعاني، وحظُّ القلب: الاتِّعاظ والتأثُّر، فاللسان يرتِّل، والعقل يترجم، والقلب يتَّعظ.

٦ ـ سهولة البحث وتسهيل الفهم والتدبُّر، فكونه في مجلد واحد يساعد في الوقوف على معنى الآية أثناء التلاوة دون البحث في عدَّة مجلدات، وكذلك سهولة حمله واقتنائه.

٧ ـ اخترت أن يكون أسلوب كتابتي لهذا التفسير صالحاً لجميع القراء على اختلاف مستوياتهم الثقافية وَفق الأسلوب السهل الممتنع، فالعالم المتخصِّص في التفسير والعلوم الشرعيَّة يجد فيه معانٍ جديدةً يستفيدها، والمثقف الجامعي في العلوم المختلفة يجد فيه ما يحقق مقصده لفهم آيات كتاب الله المجيد، والمثقف المتوسط لا يجد فيه صعوبةً، تجعله يسأم من متابعة قراءته؛ لسهولة فهم كثير من معانيه، ودلالات عباراته، لأنني حرصت على كتابته بأسلوب عصريٍّ سهل ميسر واضح العبارة، وجيز لا يُخل ولا يُمل، حتى يكون قريباً من القارئ، ويكون كذلك صالحاً لترجمته إلى اللغات الأجنبيَّة ترجمةً دقيقةً صحيحة.

شكر ودعاء:

وبعد، فهذه بعض القواعد التي التزمتُ بها، والضوابط التي راعيتها، وقد تمَّ ـ بفضل الله وعونه ـ إنجاز هذا التفسير التدبُّري المعين، أسأل الله سبحانه أن يتقبله مني، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يكون مُعيناً للقراء على تدبر كتابه الكريم، وأن ينفعني بدعواتهم وإرشاداتهم .

وجزى الله عني خيراً كلَّ من أعانني في تأليف هذا الكتاب، وساعدني على التفرُّغ لإنجازه، وصبر على تأخري في إصداره، أو راجع بعض تجاربه، أو أبدى ملاحظاته، وأُجزِّي بالخير الإخوة العاملين في مؤسسة الريان ببيروت، الذين قاموا بطباعته، وحُسْن ترتيبه، وجودة إخراجه، وصابروا على كثرة تعديلاتي وتنقيحاتي المتتابعة، حتى ظهر الكتاب في هذه الحلة الزاهية القشيبة، وجزى الله خيراً جميع أسرتي: زوجتي وأبنائي وبناتي خير الجزاء، الذين آزروني، وصبروا عن انشغالي عنهم، وانهماكي في كتابة هذا التفسير، لأُخلِّف لهم أكرم ميراث يتدبَّرون به كتاب ربِّهم سبحانه في رحلة امتحانهم في دنياهم، ويتزوَّدون منه لآخرتهم، وهو سبحانه يتولاهم بما يتولَّى به عباده الصَّالحين.

ربِّ ألهمني الصواب، وسدِّدني، وافتح لي فتحاً مبيناً، واجعل عملي خالصاً لوجهك، وارفعني به عندك، وانفع به عبادك، وأتمم عليَّ نعمك، إنك أنت الوهاب، ولا حول ولا قوة إلا بك .

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٤٦].

ونسألُ اللَّهَ المُبْتدِئَ لنا بِنِعَمِهِ قَبْلَ اسْتِحقاقِها، المُديمَهَا علينا، مع تقْصيرنا في الإتْيانِ على ما أَوْجَبَ

به مَنْ شكره بها، الْجَاعِلَنَا في خير أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاس: أنْ يرزُقَنا فهماً في كتابه، ثمَّ في سُنَّة نبيِّه، وقَوْلاً وعملاً يؤدِّي بها عنَّا حقَّه، ويُوجِبُ لَنَا نَافِلَةَ مَزيدِه»[1].

«اللهم فلا تعذِّب لساناً يخبر عنك، ولا عيناً تنظر إلى علوم تدلُّ عليك، ولا قدماً تمشي إلى خدمتك، ولا يداً تكتب حديث رسولك ﷺ؛ فبعزَّتك: لا تدخلني النار، فقد ظننت في نفسي: أني أدافع عن دينك»[2]. ويرحم الله من قال: آمين.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه:

مجد مكي

الاثنين ٢٦ من شوال ١٤٢٦

---

(١) اقتباس من «الرسالة»: ص١٩ ـ ٢٠، للإمام الشافعي (ت: ٢٠٤) رحمه الله تعالى.

(٢) هذا الدعاء للعلامة ابن الجوزي أبي الفرج عبد الرحمن بن علي (ت: ٥٩٧) رحمه الله تعالى.

من أجل قراءة مؤثِّرة للقرآن الكريم

أولاً: استحضر عظمة الكلام الذي تتلوه، وجلالة قدره، وعلو منزلته، وتهيَّأ لتلاوته بالوجل والخوف، والرجاء والفرح به، ولاحظ فضل الله سبحانه ولطفه في إيصال معاني كلامه إلى فهمك.

ثانياً: استحضر عَظَمَة المتكلِّم سبحانه، وجلاله وهيبته، وأنَّ ما تتلوه ليس من كلام البشر، فإذا عظُم المتكلِّم في قلبك، وكبُر في نفسك، أطلت الفكر في خطابه، وأنعمت تدبُّر كلامه، وجدَّدت تذكره عند كلِّ مناسبةٍ تستدعي ذكره؛ لأنَّ القرآن ذكرٌ يجب علينا أن نفهمه أولاً، ونذكر ما فيه دواماً.

ثالثاً: استعذ باللّه عزَّ وجل من الشيطان الرجيم، واستحضر طلب العون من الله تعالى من كيد الشيطان، الذي يسعى جهده لصدِّك عن تلاوة كلام الله وتدبره، ويحول بينك وبين الانتفاع بالقرآن.

رابعاً: اقرأ قراءةً صحيحةً مُرتَّلة بتُؤَدَة واطمئنان؛ ليكون ذلك أدنى إلى فهم المعاني، وليكن همك عرض المعاني على قلبك عسى أن تتأثَّر وتخشع، ولا يكن همك متى تختم السورة.

قال ابن مسعود ـ (ت: ٣٢) رضي الله عنه ـ: (لا تهذُّوا القرآن هذَّ الشعر ـ أي: تسرعوا في قراءته كقراءة الشعر، ـ ولا تنثروه نثر الدَّقَل ـ وهو أردأ التمر ـ قفوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب)[(١)].

وقال الحسن البصري ـ (ت: ١١٠) رحمه الله تعالى ـ: (يا ابن آدم: كيف يرقُّ قلبُك، وإنما همَّتك آخر السورة).

خامساً: تدرَّج في التلاوة التأمُّلية التدبُّرية ما بين خمس آيات إلى عشر آيات، لترسخ معاني الآيات في عقلك وقلبك، وتتحوَّل بعد الفهم إلى العمل بمقتضاها والتطبيق لها.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات لم يُجاوزهنَّ، حتى يعرف معانيهنَّ، والعمل بهنَّ)[(٢)].

سادساً: كرِّر القراءة للآية مراراً، وردِّدها لتقف على معانيها ومراميها.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قام النبي ﷺ بآية يُردِّدها)، وهي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [(٣)].

سابعاً: تجاوب مع الآيات التي تتلوها بفهمها وتدبُّر معانيها، وأورد ما يُناسبها من الأدعية والأذكار،

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٧٨٢)، ومختصر قيام الليل، للمروزي ص ١١٦ و ١٣٥.
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١: ٨٠ (٨٢)، والحاكم في المستدرك ١: ٥٥٧.
(٣) رواه أحمد في «المسند» ٥:١٤٩ (٢١٣٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٤)، وابن ماجه في «السنن» (١٣٥٠) وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات. وقد بوَّب الإمام أبو عُبيد القاسم بن سلام في كتابه «فضائل القرآن» باب ما يُستحبُّ لقارىء القرآن من تكرار الآية وتردادها، ثم ساق هذا الحديث (١١٨)، وأورد غيره من الأحاديث والآثار.

فإذا مَرَرت بآية تسبيح سبِّح وكبِّر، وإذا مررت بآية دعاء واستغفار ادعُ واستغفر، وإن مررت بمرجوٍّ اسأل، وإن مررت بمخوف استعذ، وافعل ذلك بلسانك وقلبك.

ثامناً: استوضح من معنى كلِّ آية ما يليق بها؛ إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عزَّ وجل، وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام، وذكر أحوال المكذِّبين لهم، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (من أراد خبر الأوَّلين والآخرين، فَلْيثوِّر القرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين)(١) أي: ليُنقِّر عنه، ويفكِّر في معانيه وتفسيره.

قال مالك بن دينار ـ (ت:١٣١) رحمه الله تعالى ـ: (يا حملة القرآن ما زرع القرآن في قلوبكم، فإن القرآن ربيع المؤمنين كما أن الغيث ربيع الأرض) (٢).

تاسعاً: اجتنب موانع التدبُّر والفهم لمعاني القرآن، وهذه الموانع كثيرة، منها:

١ ـ أن يكون همُّك مُنصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مَخَارجها، فيكون تأمُّلك مَقصُوراً على مَخَارج الحروف، ويُثبِّطك عن المهم، وهو الوصول إلى فهم المعاني. فمثل من يفعل ذلك مثل من اشتغل بالوسائل، وأعرض عن المقاصد.

٢ ـ أن تكون مُقلِّداً لمذهبٍ سمعته بالتَّقليد وجَمَدت عليه، وثَبَت في نفسك التعصُّب له بمجرَّد الاتِّباع للمسموع من غير وصولٍ إليه ببصيرةٍ نيِّرةٍ، وبُرهان ساطع، فيكون مثلك كمثل شخص قيَّدَهُ معتقده من أن يجاوزه، فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن بَدَا له معنى من المعاني التي تُباين مسموعه حَمَلَ عليه شيطان التقليد حَملةً منكرة، وقال: كيف هذا يخطر ببالك، وهو خلاف معتقد آبائك؟! فيرى أنَّ ذلك الذي فُتح له فهمٌ في ذلك المعنى الذي بَدَا له غُرور الشيطان، ويعدُّه من تلبيساته، فَيَتَباعدُ عنه، ويتحرَّز عن الوقوع في مثله.

٣ ـ أن تكون مُصِرّاً على ذنب، أو مُتَّصفاً بِكِبْرٍ وعُجب (٣)، أو مُبتلًى في الجملة بهَوًى في الدنيا يُطاع بما تميل إليه نفسك، فإنَّ ذلك سبب ظُلمة القلب وصدأه.

وكُلَّما كانت الشَّهوات أشدَّ تراكماً، وأكْثَرَ تَوَارداً، كانت معاني الكلام أشدَّ احتجاباً، وأكثر استِتاراً، وكلَّما خَفَّت عن القلب أثقالُ الدنيا، قَرُب تجلِّي المعنى فيه، فالقلب مثل المرآة

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٦٤١)، وابن المبارك في «الزهد» (٨١٤)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٦٤)، وأورده الهيثمي في «المجمع» ٧: ١٦٥ بلفظ: «من أراد العلم فَليثوِّر القرآن، فإن فيه علم الأوَّلين والآخرين»، ثم قال: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح، وقال مسروق بن الأجدع الكوفي (ت: ٦٢): «من سرَّه أن يعلم علم الأوَّلين والآخرين، فليقرأ سورة الواقعة» كما في «سير أعلام النبلاء» ٤: ٦٨ للذهبي. وقال: «هذا ما قاله مسروقٌ على المبالغة، لِعظَمِ ما في السورة من جُمَل أمور الدارين، ومعنى قوله: فَلْيقرأ الواقعة. أي: يقرؤها بتدبُّر وتفكُّر وحضور».

(٢) مختصر قيام الليل، ص١٦٠.

(٣) ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال سفيان بن عُيينة: «أنزع عنهم فهم القرآن» كما في تفسير الطبري ١٣: ١١٢.

المجلوَّة، والشَّهوات عليه مثل الصَّدأ على المرآة، ومعاني القرآن مثلُ الصُّورة التي تتراءى في المرآة، فما دام صدأ الشَّهوات عليها لا تتجلَّى الصُّور على حقيقتها.

وقد شرط الله تعالى الإنابة في الفهم والتذكُّر، فقال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، والذي آثر غُرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب، فلذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب، ولا يُفتح له في تدبُّرها باب.

٤ ـ أن تكون قد قرأت تفسيراً ظاهراً، فاعتقدت أنه لا معنى لكلمات القرآن، إلا ما تناوله النقل عن بعض السَّلف، وأنَّ ما وراء ذلك تفسيرٌ بالرأي، وأنَّ من فسَّر القرآن برأيه فقد تبوَّأ مقعده من النار، فلا طريق لفهم القرآن وتدبُّره إلا بما نُقل عن هؤلاء الأئمة، فهذا أيضاً من الحُجُبِ المانعة عن فهم القلب للمعاني[(١)].

عاشراً: قدِّر نفسك أنك المقصود بكلِّ خطاب جاء في القرآن، فإن سمعت أمراً أو نهياً قدِّر أنك المنهيُّ والمأمور، وتبرأ من حولك وقوتك، ولا تلتفت إلى نفسك بعين الرِّضا والتزكية، فإذا تلوت آيات الوعد والمدح للصالحين، فلا تشهد نفسك عند ذلك، بل اشهد الموقنين والصِّديقين. وإذا تلوت آيات المقت وذم العصاة والمقصّرين شهدت نفسك هناك، وقدَّرت أنك المخاطب خوفاً وإشفاقاً.

حادي عشر: ترقَّ في تلاوة كلام الله بأن تُقدِّر أنك تقرؤه على الله عزَّ وجل واقفاً بين يديه، وهو ناظر إليك، ومستمع منك، ويكون حالك: السؤال والتملُّق والتضرُّع والابتهال، ثم تترقَّى إلى درجة ثانية، وهي أن تشهد بقلبك؛ كأن الله عز وجل يُخاطبك بألفاظه، ويناجيك بإنعامه وإحسانه، فمقامك: الحياء والتعظيم، والإصغاء والفهم، ثم تترقى إلى درجة ثالثة، وهي أن ترى في الكلام أوصاف المتكلِّم، فتكون مقصور الهم على المتكلِّم، موقوف الفكر عليه كأنك تشاهده[(٢)]. «فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ثاني عشر: أحسن صُحبة كتاب الله عزَّ وجل بحمل رسالته، وتحقيق أهدافه ومقاصده، واعلم أنَّ هذا القرآن الحبيب لا يفتح كنوزه إلا لمن يعمل به، ويتحرَّك به حركةً عمليّةً واقعيّةً، ويتزوَّد بالزاد العلميِّ الذي يملأ وقته، ويستولي على أحاسيسه ومشاعره.. أما الذي يقرأ القرآن ـ ولو على القراءات العشر ـ ويحفظ

---

(١) قال الغزاليُّ في «الإحياء» ١: ٢٩٠: «وليس معنى فهم القرآن: حفظُ تفسيره، فإنَّ في معاني القرآن مُتَّسعاً بالغاً، ومجالاً رحْباً لأرباب الفهم، وإنَّ المنقول من ظاهر التفسير ليس مُنتهى الإدراك فيه»، ثم وجَّه معنى النهي عن تفسير القرآن بالرأي بأنه يُنزَّل على أحد وجهين: **أحدهما:** أن يكون له في الشيء غرض، وإليه مَيل من طبعه وهواه، فيتأوَّل القرآن على وَفْق رأيه وهواه، ليحتجَّ به على تصحيح غرضه، فيكون المراد بالرأي: الرأي الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح. **والوجه الثاني:** أن يُسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسَّماع والنَّقل فيما يتعلَّق بغرائب القرآن، وما فيها من الألفاظ المبهمة والمجملة والمُبدَلة، وما فيها من الإيجاز والاختصار، والحذف والإضمار، والتقديم والتأخير، وغير ذلك.

فَمن لم يُحكِم ظاهرَ التفسير، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرَّد فهم العربية كثر غَلَطُهُ، ودَخَل في زُمْرة من يفسِّر القرآن بالرأي وهوى النفس» انتهى. وقد نقل هذا التوجيه لأحاديث النهي عن التفسير بالرأي ابن الأثير في «جامع الأصول» ٢: ٤، والقرطبي في مقدمة «تفسيره» ص٩٢ ـ ٩٣ دون أن يعزواهُ إلى الغزالي.

(٢) الإحياء ١: ٢٨٧، والبرهان ١: ٤٥٢.

أجزاءَهُ الثلاثين، ويُطالع معظم تفاسيره، ويبحث عن بيانه وأسلوبه وبلاغته، وهو (قاعدٌ) عن اهتماماته وحركته ودعوته، فإنَّه لا يمكن أن يتعرَّف على القرآن، ولا أن يُحسن صُحبته، ولا أن يتعامل معه!!

فعليك أن تدعو النَّاس إلى القرآن، وتُربِّيهم عليه، وتعقد حلقات ودورات التلاوة والحفظ، والتدبُّر والفهم، ومجالس التَّزكية والتَّربية.. ولتواجه الأعداء بالقرآن، وتجاهدهم به، وتُحصِّن شباب الأمَّة بالقرآن.. وعليك أن تُعطي القرآن أفضل أوقاتك، وأبرك ساعاتك، وهي ما تكون وقت السحر لمناجاة الله، وبعد الفجر للتلاوة والحفظ والتدبُّر، وفي النهار للدعوة والتَّوجيه والتَّزكية.

ولا تنسَ هذه القاعدة الصَّادقة: **إنَّ القرآن لا يُعطيك بعضه إلا إذا أعطَيتَه كلك.** ومعنى أن تُعطي القرآن (كلك): أن تَقْصُر هدفك وغايتك عليه، وتُوجِّه همَّك واهتمامك له، وتملأ أوقاتك به، وتعيش مع القرآن في حياتك.

* * *

الاستعاذة
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

أمر الله تعالىٰ رسوله ﷺ أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم إذا أراد أن يقرأ القرآن، قال الله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]. والأمر بالتعوُّذ يعمُّ جميع الأمة، وهو أمرٌ للنَّدْب لا للوجوب.

والحكمة في مشروعيَّة التعوُّذ عند إرادة القراءة هي: أنَّ قراءة القرآن الكريم عبادة عظمىٰ، تتطلَّب الإخلاص لله تعالى، وإحضار القلب؛ ليعظم الأجر، وتتحقَّق الفائدة. وإنَّ من شأن الشيطان أن يوسوس للإنسان إذا دخل في عبادة، ليشغل قلبه عن الحضور، فجاء الأمر الإلهي بالتعوُّذ عند إرادة قراءة القرآن الكريم، ليكون القارىء في عياذٍ منيع، وحِرْز حصين، وبذلك يحضر القلب، وينشرح للتلاوة.

فالاستعاذةُ ـ إذن ـ تُطهِّرُ القلبَ عن كلِّ شيء يشغله عن الله تعالى.

وفيها: إقرار العبد بالعجز والضعف، واعترافه بقدرة الباريء سبحانه، وأنه هو الغنيُّ القادر على دفع جميع المضرَّات والآفات. **وفيها**: اعترافٌ من العبد أيضاً بأنَّ الشيطان عدوٌّ مبين.

ومعنى «**أعوذ بالله**»: ألتجىءُ إليه وأمتنعُ به؛ لأجل أن يحفظني من شرِّ الشيطان ووساوسه، ومِنْ إفساده عليَّ أمرَ ديني ودنياي، فإنه لا يحفظ العبد ولا يُجيره من الشيطان إلا الله تعالى.

و«**الشيطان**»: كلُّ عاتٍ مُتمرِّدٍ مُتَباعدٍ عمَّا يُرضي الله تعالى من الجنِّ والإنس، وإبليس إمام الشياطين ورئيسهم.

و«**الرجيم**»: المطرود عن رحمة الله تعالى. وكلُّ من اتَّخذ إبليس إماماً له، وصار مُغْوياً مُضلاً لعباد الله، فهو شيطان رجيم.

واتفق جمهور العلماء على أن الاستعاذة سنَّةٌ في الصلاة، ويُستحبُّ لقارىء القرآن خارج الصلاة أن يتعوَّذ أيضاً قبل قراءة القرآن.

وأجمع العلماء على أنَّ الاستعاذة ليست من القرآن الكريم؛ ولهذا لم تُكتب في المصاحف.

* * *